انبثاق الوعي بالآخرية وحدود المقاومة

مقاربات ما بعد نسوية في أعمال آسيا جبار ورضوى عاشور

د/حياة أم السعد

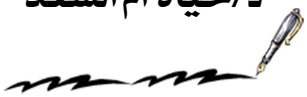

أستاذة محاضرة(أ)

ج. الجزائر2

هل يمكننا أن نربط كينونة المرأة بالمقاومة؟ سؤال نعتقده يعيدنا إلى تاريخ قديم يتواشج مع الحديث والمعاصر، لأنّ وجود المرأة في العالم نما ضمن صراعات كثيرة جعلت نساء العالم يدخلن في مدارات نزاع مرير بينهن وبين الآخر المتعدد، يحاولن من جهة إثبات وجودهن واسترداد حقوقهن، ومن جهة أخرى يسقطن في تبعات التحرر، لهذا نرى تعدّد أوجه المُقَاوَمات التي خاضتها نساء العالم، فمنهن من أسرتها مجتمعات بطريكية ظالمة جعلتها خادمة في مرتبة دونية لا حقّ لها في ممارسة حرياتها، ومنها من قمعتها القوى الاستعمارية فاتحدت مع الرجل لتقوم مستلبا اغتصب أرضها وحقها في الحياة، وهناك من تقاوم تَشَيُؤ المرأة وجعلها سلعة تباع وتشترى في سوق النخاسة العالمية، وهناك المرأة التي تقاوم المرأة التي ضدها،

تختلف عنها في حرياتها ومبادئها وجوهرها. فعن أيّ مقاومة نسوية سيكون حديثنا في هذه الورقة البحثية؟

إنّ وجود مفارقات عجيبة في تاريخ المقاومة النسوية في العالم يحتم علينا خوض متاهاتها قبل أن نلج موضوع هذه الورقة البحثية، التي اتخذت هدفا واضحا تتحدّد معالمه بالوقوف على انبثاق الوعي النسوي بالآخر، في محاولة لتتبّع مسار كتابة نسوية واعية عكست فيها المرأة بأفعالها درجة وعي عالية أخرجتها من الآفاق الضيقة إلى مساءلات رهيبة تعيد معالم كتابة تاريخ للمقاومة النسوية العربية في ظلّ الاستعمار الغربي.

1- **مفارقات في تاريخ المقاومة النسوية:** ارتأينا أن نقدّم هذا العنصر لوضع اليد على مفارقات عجيبة تغلف مسار النساء والمقاومة، ونبدأ بسؤال مُهمّ ومُحير طرحه عالم التحليل النفسي (سيغموند فرويد) (Sigmund Freud): **ماذا تريد النساء؟**

ربما كان فرويد يعي أنّ المرأة الغربية عانت من العبودية وستعاني من التحرر بقدر أكبر، لأنّ رحى الإمبريالية الجديدة ستوظف تحررها لتستعبدها بنعومة فائقة ولن تترك لها مجالا للتحرر ثانية، لأنّها منحتها حرية مشروطة يغذيها خطاب لامع شعاره "تحرير المرأة من سطوة الرجل والعادات البالية

والأسرة لكنّ هذا الخطاب نفسه أسرها في عالم جديد تغيّر فيه وجه المعاناة، الذي تغلبت عليه تفاصيل جديدة زينت الوجه وجعلته أكثر جمالا ورونقا يستهوي المرأة فتسقط برضاها في جحيم سلطة أبدية تظلّ تتبعها.

والناظر المدقّق في وجه العالم الجديد يجد أنّ المرأة والرجل على حدّ سواء يتقاسمان عبوديات كثيرة تزين حياتهما التي تغيرت إلى الأفضل، وأدخلتهما عوالم التعدّد التي تنساق فيها الذات إلى مسارات لا تجد فيها خيارات كثيرة، لأنّ المعنى تبدد مع تبدد الكثير من المعالم الدالة على الكينونة، فالوسائل أصبحت غايات في حدّ ذاتها. وبعدما كانت الغاية من تحرير المرأة منحها حقوقا تخرجها من الاستغلال والهيمنة بكلّ أنواعها، أصبحت حرية المرأة وسيلة تجارية وسياسية ودينية وأيديولوجية، تعلق على جسدها أوسمة تتوافق مع متطلبات السلط المهيمنة التي تحرك حرية المرأة لتتوافق مع درجة استغلالها.

إذا غيرنا سؤال فرويد وصغناه بطريقتنا في هذا البحث وقلنا: ماذا تريد المرأة العربية حين تكتب؟ تتعدد الإجابات وتتباين وتختلف، لأنّ الشرط الحضاري الجديد حرر صوت المرأة وأصبحت تكتب عن ذاتها وعالمها وأحلامها دون التقيد بشروط يفرضها المجتمع. منح العالم الجديد لكلّ النساء صوتا، وتُفضل الكثيرات الصمت فتنوب عنهن أخريات أدركن قيمة

ووظيفة الكلّام مجسدا في الكتابة خاصّة حين تنبثق هذه الكتابة عن وعي تاريخي وثقافي لا يسقط فقط في شراك الصراعات الأزلية التي تستهوي كاتبات كثيرات انحصر أفقهن أمام المشاكلّ العويصة التي تجابهها المرأة العربية في صراعها مع الرجل والمجتمع، وهي رؤية حداثية فرضتها بنية المجتمعات الحديثة التي لم تعدّ تؤمن بحدود المرأة بل تساند تطلعاتها وتحثها على إثبات ذاتها دون مراعاة لشروط ثقافية وحضارية ولدت فيها هذه المرأة.

انساقت كثير من الكاتبات دون وعي منهن، واختزلن إبداعهن ضمن التشريطات المختزلة في صراع الرجل والمرأة، متأثرات في ذلك بمبادئ تيارات نسوية كثيرة رفعت شعارات تندد بالهيمنة الذكورية، مطالبة بالحرية والفكاك من أسر هدّد حريات المرأة لقرون.

لم تكن هذه التيارات على اختلافها مذنبة في مسعاها ومطالبها، لأنّ المرأة في العالم الغربي عانت ظلّما وقهرا ودونية تشربتها من سلطة الرجل والمجتمع الذي كان يغذي الرؤية الذكورية للعالم ويمنع المرأة من ممارسة حقها في حياة مستساغة، بل دأب الكثير من المفكرين والفلاسفة نحو هذا المسعى مقلصين دور المرأة لقصورها العقلي، وعدم قدرتها على تسيير شؤونها، فهي تحتاج لمن يرعاها مثلما نصّ على

ذلك (روسو) (Rousseau) و(غوستاف لوبون) (Gustave lapin) و(هيقل) (Hegel) وكثيرون.

لخصت (فرانزواز هيريتي) (Héritier Françoise) الرؤية الدونية للمرأة في كتابها: "الذكورة /الأنّوثة، الفكر بالاختلاف": "يجب إقناع النساء بدونيتهن، وتذكيرهن بأنّ عدم تمتعهن بالحرية راجع إلى أنّهن سيسئن استعمالها وإذا حرمن من تحصيل المعرفة فذلك يعود لكونهن ناقصات ذكاء وقدرة على إبداء الرأي...يجب احتقارهن بما فيه الكفاية حتى يصل بهن الأمر إلى اعتبار خضوعهن وضعية طبيعية"[1]، ليس أفظع من هذه الرؤية التي توزع العقل على البشر بين متدن وراق، خاصّة ونحن في عصر نشهد فيه قوة انجازات المرأة التي تخطت وقفزت إبداعيا خارج كلّ الحدود المرسومة، وهذه المرأة بالتركيبة الفزيولوجية نفسها لعقل امرأة العصور السالفة المتهمة بالقصور، والحقيقة أنّها قُمعت فلم تتمكّن من إثبات وجودها والمساهمة في تغيير وجه العالم إلى الأفضل فالنبوغ لا جندر له، إلاّ الممارسة الفعالة للإمكانات المتاحة أمام الجنسين.

أين المشكلّ إذا؟ لماذا خندق الرجل والمجتمع والثقافات الغربية الغائرة في القدم أدوار المرأة في زمن ما؟ ثم عملت كلّ الدول السائرة نحو النمو إلى تحرير المرأة، فأصبحت

اليوم كلّ المنظمات والحكومات تسعى لتحرير المرأة من السلط المحاطة بها؟

إذا كانت "فرجينيا وولف" تعتقد أن قبول المساواة بين الرجال والنساء يعني بالنسبة للعديد من الرجال التشويش على تصورهم للعالم وقبول اقتسام السلطة [2]، فإنّ العالم اليوم تغير، وخارطة الهيمنة الذكورية غيرت وجهها مع النظام الرأسمالي الذي يفرض تفتح المجتمع وخروج المرأة للعمل، لم تعد المرأة الغربية تعاني من سلطة الرجل بل من سلطة أقوى لن تستطيع الحركات النسائية على اختلافها تحريرها لأنّها سقطت فيها وهي الرأسمالية، تؤكد (سيمون دي بوفوار): "يجب التخلص من الرأسمالية...فاستغلال النساء يمكن استبعاده مع التخلص من الرأسمالية، ومن المحتمل خلق ظروف أفضل لتحرير المرأة"[3]، لم تترك الرأسمالية ولا الإمبريالية الجديدة عصرا للنساء، فأشكال العنف الممارس ضد المرأة في هذا العالم الجديد تضاعف ألاف المرات.

ربّما هي مقدمة مطولة أردتها لأربط بين ظرفين مرّ بهما العالم، ظرف **تحرير المرأة** وظرف **استعماري** متوحش عصف بمجتمعات كثيرة، محا استقرارها وغير تركيبتها مع طول زمن الاستعمار، مرّ العالم بمراحل شديدة التعقيد غيرت الكينونات والهويات، فعلا سعت المرأة الغربية إلى التحرر مدفوعة إليه دون أن تعي، وفي الشق الآخر من العالم تستعمر

شعوب تنزف حرياتها خلف مواقع الدفاع. تناقض رهيب **الحرية** هناك و**الاستعمار** هنا... والمقاومة شرسة من النساء والرجال معا أين اندمجت الثنائيات واتحدت لتجابه معا الاستعمار والدمار.

فإذا ما نظرنا بدقة إلى الدول التي رحتها الآلة الاستعمارية من جهة، وإلى الدول التي كانت المرأة فيها تطالب بحريتها وتفُض هيمنة الرجل عليها، لرأينا المفارقة واضحة: ففي الجهة الأوّلى يطلق الاستعمار جوره على مجتمعات استدمرها وهيمن على رجالها ونسائها وأطفالها وأرضها، مجتمعات بأسرها تسقط تحت أنياب متوحشة والصورة واضحة، الرأسمالية التي دفعت المرأة للتحرر في المجتمع الغربي، هي التي دفعت الحرب والاستعمار إلى عالمنا الثالث، وسمته بالدونية وبعدم القدرة على التفكير والأنّتاج، مجتمع تابع لا بد له من مستعمر يقوده إلى النجاة، سلطة غربية تسم مجتمعات برمتها بالسمات نفسها التي كانت تلصقها بالمرأة الغربية التي دفعتها الرأسمالية للتحرر.

تناقض يبدو غريبا، لكنه يعكس انسجاما بالغا في بنية النظام الرأسمالي لهذا نجد العالم العربي كوجه من أوجه العوالم التي خضعت للاستعمار مملوءا بالمتناقضات على كلّ المستويات، بنيات تفكير متضاربة تختلف بحسب درجة احتكاكها بالآخر الغربي الذي دخل مستعمرا وأدخل ثقافته وتفكيره وعالمه،

تغيرت بنية المجتمعات العربية في ظلّ الاستعمار وما بعده. لأنّ الأنّا تعرف على الآخر على عالمه وشوائبه. لذلك نشهد مواقف متباينة بين النخب العربية في فترة الاستعمار، فهناك نخبة ركزت على تحرير المرأة، ونخبة اهتمت بالأبعاد السياسة، وأخرى ركزت على ضرورة الفكاك من الاستعمار.

سياقات عدة ووجهات نظر مختلفة في البلد المستعمَر الواحد، وفي البلدان المستعمرة على اختلافها. لأنّ تجربة الاستعمار في البلدان العربية ليست نفسها، وبالتالي لم تكن مواقف الكتابات النسوية بالحجم نفسه، كانت الأقلام قليلة، مُنحت لبعض الكاتبات اللاتي ساعفهن الحظ في التعليم الذي كان حكرا على طبقة معينة. بعض الكاتبات العربيات لم تَحُدُهُنّ أفاق الكتابة، فكتبن عن صراعات المرأة والرجل، لكنهن وسعن من آفاق كتاباتهن ومضينا لزعزعة التسلط الاستعماري في كتاباتهن وحاولن التركيز أوّلا على مناهضة الاستعمار، وفي الوقت نفسه انتقدن وضع المرأة في العالم العربي لأنّهن تفتحن على ثقافة الآخر الغربي، وأصبحت تطلعاتهن تدخلهن إلى عوالم شائكة.

نشير في هذا السياق إلى كاتبات عربيات كثيرات، امتزج وعيهن بالمقولات **ما بعد النسوية** أين تنصهر الثنائيات ويصبح الرجل والمرأة معا كيانا متحدا منسجما لا يعترف بالسلطة التي تهدد كيانهما ومجتمعها، قاومت هذه الكاتبات مع الرجل لتحرير الوطن، للتحرر من العادات البالية، لمقاومة الاستعمار

الذي حل بشعوبهن وسلبهن حقا في الحياة ومرتعا للأمل والراحة، أدركت كاتبات مثل **آسيا جبار** و**سها بشارة** و**رضوى عاشور** و**أهداف سويف..** أن النقمة الحقيقية التي حلت على المجتمعات العربية هو الاستعمار الذي غير معالم الهوية ورسخ الشتات واستلب اللّغة والعادات.

سنقف في هذه الورقة على الكتابة النسوية ما بعد الحداثية، لأنّها حملت رؤية للعالم تفوق صراع الثنائيات إلى دمج للآفاق سعيا لمجابهة أسئلة الكينونة والوعي بالآخر سواءاً كان رجلا أم مستعمرا أم سلطة سياسية أم اجتماعية. سنركز على نقطة مهمّة وهي **استحضار الصوت النسوي برؤية ما بعد حداثية** هو ما رأيته يجمع الكاتبتين الراقيتين **آسيا جبار** و**رضوى عاشور** قامتين أدبيتين حررتا معا صوت المرأة التي تقاوم الصمت بالصوت، فهل من خلفيات مشتركة في كتابات أسيا ورضوى، هل هناك خصوصية في الطرح وفي تناول القضايا التي تمس المقاومة النسوية؟

قراءتنا المتأنية لنصوص الروائيتين العربيتين جعلتني أرصد العديد من النقاط المشتركة بينهما، فقد لاحظت أنهما:

1-اهتمتا معا بـ**التاريخ** وما فيه من صراعات، فأسيا **جبار** كتبت عن نساء المدينة المنورة في روايتها "Loin de Médine[4]" وكلّ شخصيات الرواية شخصيات نسوية عاشت صحبة الرسول

صلى عليه وسلم، وصحابته، أسمعتنا أصواتهن، وحكايتهن ومواقفهن كنساء حرب مقاومات باسلات همشهن التاريخ الذكوري بعد وفاة الرسول صلي الله عليه وسلم، الذي سمع صوتهن وأعطاهن الحق في البيعة والشورى، ونقل أحاديثه، بعد وفاته كانت الردة في كلّ المستويات، وعادت المرأة لتعامّل وتهمش مثلما كانت في الجاهلية.

كما استحضرت في روايتها " امرأة بلا ضريح [5] La Femme sans Sépulture صوت "زوليخة" الشهيدة التي أثبتت للمستعمر الفرنسي أن المرأة الجزائرية لا تهاب وحشية المغتصب وتقاومه حتى الاستشهاد ولا يثنيها عن فعل المقاومة أبشع تعذيب.

إن القارئ لكلّ روايات **رضوى عاشور** سواء **"ثلاثية غرناطة"** أم **"الطنطورية"** أم **"أطياف"**، **"خديجة وسوسن"**، **"فرج"....** يلاحظ من الوهلة الأوّلى حضورا صارخا للشخصيات النسوية، عادت بنا رضوى إلى تاريخ الخيبات بعد سقوط غرناطة وضياع الأنّدلس، والدمار الذي ألحقه الصهاينة بفلسطين المحتلة، هذا التاريخ الذي نسمعه بصمت النساء المقاومات: مريمة وسليمة ورقية وخديجة وشجر... كلّهن أظهرن بسالة منقطعة النظير للحفاظ على الموروث التاريخي والثقافي في ظلّ الاستلاب الاستعماري الذي يمحو الكينونة والهوية. كما شاركت

شخصيات رضوى النسوية الهم السياسي وتقاسمت السجن مع الرجل يدا بيد من أجل تغيير المجتمع إلى الأفضل.

أدركت **آسيا جبار ورضوى عاشور** أنّ "الجهل بالتاريخ هو قوة استعمارية تكرس الخنوع والاستسلام ومن أجل كسر هذا القيد لا بدّ من **المقاومة** الثقافية" التي قوامها الكتابة كردّ فعل رمزي يتوسل السرد للعودة إلى التاريخ باعتباره فعلا رمزيا مقاوما. واستثمار التاريخ في كتابة الرواية هو جزء من المقاومة الثقافية أحد أبرز أوجه ما بعد الحداثة ومنبت الدراسات ما بعد الكولونيالية التي تشتغل على التعبير عن كيفية عمل اللّغة والسلطة في العالم كما يرى (بيل أشكروفت)[6]، لهذا تغدو مفاهيم الصوت والكلّام والصمت مهمّة جدا كأساليب للمقاومة.

2-جسدتا معا وعيا حادا بـ**الآخر**، واشتغلتا معا على **الذاكرة** وقضايا المرأة المقاومة واللّغة، كتبتا ضد العنف وضد التهميش وضد القهر، رسمتا بالكلّمات وبالمواقف وعيا يقاوم الهيمنات الاستعمارية ووحشية الإرهاب، وأسمعتنا صوت نساء كثيرات كلّ واحدة منهن ساهمت في مقاومة هيمنة ما، سعيا لبناء وطن صَوَرَتَا المرأة المُقاومة التي لم يخلو أي عمل من أعمالهن من حضورها الصارخ وهي تقاوم ببسالة. ونسمع خطاباتها المترددة بطرق مختلفة في كلّ أعمالهما الروائية التي تعكس حجم وعيهن بقضايا المرأة.

4-تقاسمتا مهمّة تحرير الصوت النسوي في كتاباتهما، فكما أشرن سابقا، بطلات روايتهما من النساء اللاتي يحاولن مقاومة واقعهن سياسيا واجتماعيا وأسريا، والأهم الذي تناولتاه هو وعي المرأة بمجابهة ومقاومة الاستعمار في ظرف تاريخي مختلف، فإنّ كانت **آسيا جبار** تكتب عن مقاومة زوليخة للاستعمار الفرنسي في روايتها ""المرأة بلا ضريح La femme sans sépulture "، فإنّ **رضوى عاشور** المسكونة بتاريخ الأمّة العربية تكتب عن رقية في رواية **"الطنطورية"** التي تواجه نكبات الاحتلال الصهيوني من جهة وأزمات الهوية في ظلّ الشتات من جهة أخرى. أما في روايتها **"أطياف"** فتنقل مقاومة المرأة مجسدة في بطلتها "شجر" أستاذة التاريخ التي تنقب في حفريات التاريخ لتكشف التزييف الصهيوني الذي طال مجزرة دير ياسين، ومقاومتها هي كامرأة لظروف الحياة في ظلّ البيروقراطية العربية.

لكي نلملم فعل المقاومة مجسدا في كتابة الأديبتين الذي يرسم وجودا لبطلات مقاومات سنقف عند مقاطع من نصيهما لنرسخ أفكار المقاومة.

2- أسيا جبار وعي تاريخي يقاوم بالذاكرة النسيان: تعدّ **آسيا جبار** روائية جزائرية ذاع صيتها وعبرت شهرتها الآفاق الأدبية، بعدما التحقت بالأكاديمية الفرنسية كعربية وحيدة استطاعت الدخول إلى العالمية لأسباب عديدة وربما السبب الأوّل هو قناعاتها التي لم تتبدد في كتاباتها على اختلافها:

أوّلا: في مواقفها الوطنية بالرغم من اختيارها للّغة الفرنسية كأداة للتعبير وهي مكرهة، ساقها إلى هذه اللّغة قدر لم تتحكّم فيه، فقد منحها انتماؤها الطبقي تعليما ممتازا إبان الاحتلال الفرنسي، فوجدت في ظلّه مكانا ولغة وحيزا لم يكن متاحا للكثيرات في زمن الاستعمار، كانت واعية بحجم معاناة شعبها فركزت في روايتها على مساءلات مهمّة تمس كينونة الذات في علاقتها بالآخر، ساعدها توجهها التاريخي على التنقيب والحفر في أزمات العالم المعاصر وغياب المعنى.

ثانيا: وقوفها إلى جانب المرأة ظالمة أو مظلومة. وبالرّغم من تحريرها للكثير من الأصوات النسوية الجزائرية في رواياتها، إلاّ أنّها في نقلها لصراع المرأة ضد الهيمنة الذكورية وثقافة المجتمع الجزائري، كانت تنقل الواقع دون البحث عن السبب الذي أدّى إلى تدهور حال المرأة الجزائرية والعربية إلى هذا الحدّ، ولم تربط بينه وبين الاستعمار الفرنسي الذي غير بنية المجتمع وقلبها رأسا على عقب.

تقدم رواياتها **"المرأة بلا ضريح"** حياة شهيدة من شهداء الجزائر، كتبت عن زوليخة البطلة التي قاومت ببسالة بشاعة الاستعمار الفرنسي، ساعدها زوجها على خوض حرب التحرير المجيدة، استشهدت بعد أن قاومت، بكلّ ما أوتيت من قوة وجلد، أبشع استعمار نكلّ بالنساء وبالأنّوثة، استطاعت **آسيا جبار** في روايتها **""المرأة بلا ضريح** La femme sans sépulture **"** أن تسمعنا صوت زوليخة وهي تعيدها إلينا محررة أصوات الكثير من النساء اللواتي عرفن زوليخة وعشن القهر الاستعماري، عشن الصمت على الفضائح الاستعمارية التي مسّت شرف الجزائريات الشامخات اللاتي اغتصبهن المعمرون، لتكون فرنسا المستعمرة أقذر استعمار على وجه البشرية، خطط لقمع هذا الشعب بالمساس بوطنه وشرفه.

جسدت زوليخة شايب زوجة عوداي المرأة البرجوازية التي لم تنخدع بالوجه الجميل الذي يضعه المستعمر ليلطف من وقع حضوره في الجزائر، لأنّها حين اختارت الأنّضمام إلى الثورة سلمت حياتها وأولادها إلى الأقدار وخاضت مع زوج نبيل تجربة الثورة رحلا معا لأنّ الوطن أغلى من الأوّلاد والمال.

اختارت "آسيا جبار" شهيدة باسلة وأعادتها إلى الحياة بعد تمكينها من الكلّام تخيليا، وبحضور تاريخ هذه البطلة تحررت ذاكرة جماعية لنسمع **أصواتا نسوية كثيرة قاومت في زمنها بالفعل، وقاومت في النصّ الروائي بالصوت** الذي منح لها

فرسمت به بشاعة الاستعمار الفرنسي، وقدمت شهادات حية حول حياة شهيدة واعية مثقفة، عرفت طريق **المقاومة** فلم تدخر جهدا لتنفيذ كلّ المهمّات الموكلّة لها، دون أن يرتد طرفها أو يدخل الخوف قلبها، حتى بعد استشهاد زوجها، الذي كان سندا لها آمن بقراراتها وحزمها على خوض غمار مقاومة باسلة، واصلت زوليخة مهمتها وإن رأت فعلا أن العالم من دون زوجها لا قيمة له: " ***منعزلة أمام الجثة الهامدة، العينان المقفلتان، تُمرر يدها على الجروح الغائرة في الصدر وفي اليد، تدخل يديها في الدم النازف من زوجها، لم تبك شفتاها تردد دعاء إسلاميا، وتعدُه أنها ستواصل نضالها***" [7]

صورة تجسّد مقاومة شرسة لامرأة لم تنهر أمام جثة زوجها الشهيد ولم تبكه، فهو الشهيد الذي يروي الأرض بدمه لتتحرر من الاستعمار الغاشم، فما أخذ بالقوة لا يسترد إلاّ بها، آمنت زوليخة أنّ فعل المقاومة لا جندر له، يتساوى فيه الرجل والمرأة بل أكثر من هذا يتحدان ليتحقق الأنّعتاق، أخذت زوليخة عهدا على نفسها أن تواصل المشوار دون شريك رحل من دونها، لم يخفها الرحيل لأنّ قراراتها ثابتة ولا رجعة بعد خيار المقاومة: "***تعود إلى بيتها، سيدة محجبة،...العينان مرفوعتان، وربما تقول في نفسها: سيزار، من الأنّ فصاعدا مدينة فارغة،....من دونه! هادئة وهي تودع طفليها الأخيرين..***" [8]، إحساس رهيب بالفراغ بعد استشهاد زوجها لم

يثنها هذا على مواصلة المشوار، وإن كان المشهد معبرا وهي تقبل الصغيرين النائمين راحلة إلى الأبد، فهذا لأنّ شهيدات كثيرات روين بدمائهن أرض الجزائر الأبية ولم تمنعهن أمومتهن أو ارتباطاتهن العائلية من المشاركة في الثورة يدا بيد مع الرجل الجزائري الذي كان يؤمن فعلا بخيارات المرأة التي كانت جزءا منه يقاسمها أكبر القضايا.

أبرزت الرواية همجية وحشية المستعمر ضد المرأة والرجل معا. لأنّ زوليخة استشهدت مع زوجها الذي كان يمنحها السكينة والحب، اعتلجا وجودهما معا ورحلا شهيدن، ليبقى التاريخ شاهدا على الكثير من الجور الذي وقع على الشعوب المستعمرة، ترسم الرواية بريشة كاتبتها شذرات من عوالم ستبقى شاهدة على فجائعنا من جهة، ومن جهة أخرى هي شهادة حية عن التلاحم الذي كان منسوجا بين المرأة والرجل في ظلّ الاحتلال.

فعلا، لم يكن في حيز تفكير المرأة الجزائرية مقاومة زوجها أو والدها، كانت راضية بثقافة نمت في حضنها، بل كانت ملتحمة مع زوجها وأسرتها وعالمها لمجابهة الاستعمار بثقافته ووحشيته، شاركت المرأة الجزائرية وقاومت بكلّ ما منحها الرجل ومنحته من قوة ليجابها معا ظلامية المستعمر.

طبعا ستتحدث **آسيا جبار** عن سلطة الرجل بواقعية، بالرغم من أنّها عاشت في كنف أسرة ووالد منحها حرية التعلم والسفر والصعود إلى الجبل مثل آلاف المجاهدات المقاومات والشهيدات اللاتي واجهن المستعمر بتقديم أنفسهن وفلذات أكبادهن. إلاّ أنّ آسيا جبار كان لها حظ أكبر في التعليم، فقد منحها انتماؤها الطبقي تعليما ممتازا إبان الاحتلال الفرنسي، فوجدت في ظلّه مكانا ولغة وحيزا لم يكن متاحا للكثيرات في زمن الاستعمار، كانت واعية بحجم معاناة شعبها فركزت في روايتها على مساءلات مهمّة تمس كينونة الذات في علاقتها بالآخر، ردا على التخريب الذي مسّ بنية المجتمع الجزائري.

تعكس فعلا هذه الرواية صورة ذلك التلاحم الذي كان يربط الرجل بالمرأة معا لمناهضة العدو، هذه الصورة تغيرت مع الاستعمار الذي استطاع أن ينفث سمومه في الأسرة العربية، ويفكك تلاحمها لتكون صورة مشوهة عن الأسرة الغربية. لكنني لاحظت أن **آسيا جبار** وهي تمنح صوتا لشخصيات نسوية أخرى في رواياتها لتعبر عن حجم معاناتهن في ظلّ مجتمع يحتقر وجعهن ويمنعهن من ممارسة حرياتهن فيقاومن ردا لحقوقهن المهضومة من قبل الأسرة، مثلما فعلت فاطمة[9] في المجموعة القصصية "نساء الجزائر في مخدعهن Femmes D'Alger Dans leur Appartement التي تحكي السارد البنت حكاية خروج أمها فاطمة عن أسرتها التي لم تمنحها حرية

اختيار زوجها، فقاومت هذا الظلم ورحلت عن قريتها وتزوجت بمن تحب، فعلا هذا واقع لا مناص من الحديث عنه لكن يا ترى ما هي أسبابه؟ كيف لواقع يتحدّ فيه المرأة والرجل معا لمقاومة الاستعمار، يكون مملوءا بقمع حرية المرأة؟

يهمني في هذا السياق أن أقدم شهادة "مارجريت بدران" حول المجتمع المصري قبل الاحتلال وبعده تقول: "في مصر القديمة في أوج مجدها تمتعت النساء بحقوق مساوية لحقوق الرجل ولكن كانت هذه الحقوق تزول عند الوقوع تحت الاحتلال...فمن المثير للاهتمام أنّه أثناء الاحتلال البريطاني لمصر نقل البريطانيون أنفسهم الممارسات الذكورية ولسوء الحظ ساهم ذلك في انتشار الأمية بين النساء ومعاملاتهن كأشياء بينما حصل البعض الآخر منهن على قدر كبير من التعليم"[10]، وربما هذا ما حدث في الجزائر المستعمرة أيضا، فكيف يعقل الحديث عن هيمنة ذكورية في مجتمع كان يعيش هيمنة وتسلطا استعماريا أفظع؟ مجتمع كان منسجما في عاداته وثقافته وتقاليده ولغته، عصف المستعمر بكلّ هذه الثوابت وزعزع الكثير من القيم، فسقطنا بعده في ازدواجية لغوية وثقافية، وشرخ هوياتي مازلنا نتجرع بمرارة تبعاته[11].

وبالتالي، لم يكن بمقدور أيّ كاتبة أن تتحدث عن قهر المرأة وهي تعاني قهرا استعماريا وتعيه جيدا[12]، إلاّ أنّنا لا حظنا أن **أسيا جبار** في بعض رواياتها انساقت دون وعي منها خلف

بعض الصور النمطية التي يحبذ المستعمر وسم مجتمعنا بها، وخاصّة ما يمس ّالعلاقة بين الجنسين والأسرة والمجتمع، ففي بعض رواياتها تتحدث عن قمع المرأة الجزائرية من قبل العادات والتقاليد وهذه حقيقة لا مفر منها، لكن لو تأملت المشهد جيدا لاستطاعت أن تفهم أسلوب المستعمر الذي كانت له يد كبيرة طالت تغيير الذهنيات وخاصّة ما تعلق منها بممارسات المرأة.

فمحاولة إبراز دونية التعامّل مع المرأة العربية في مجتمعاتها تبعها مباشرة مناداة بتحرير المرأة العربية، وهذا أمر مدبر تقف عنده **"مرفت حاتم"** وتربط التحرير بمشروع كان مغلفا بأبعاد استعمارية كبيرة: "فوراء التحرير كان الهدف السيطرة بطرق جديدة "فالخطاب الاستعماري ركز على أهمية تغيير أدوار المرأة العربية ممّا أتاح للمستعمر وللرجال الدخول إلى مساحات اجتماعية كانت مغلقة كوسيلة لتطوير أساليب سيطرة تعمل من الداخل إلى الخارج" وكان هذا المشروع في الماضي والحاضر يحظى بتأييد النخب القومية كذلك من رجال ونساء وعلمانيين وإسلاميين لأنّه قدّم أفكارا جديدة لأنّماط جديدة من الحكم استمرت إلى فترة ما بعد الكولونيالية"[13]

أعجبني هذا الوعي المتبحر في سياقات تشكلّ الحركات النسوية في العالم العربي، في ظلّ غياب وعي حقيقي من قبل النخب العربية بالأبعاد الخفية والمتخفية عبر المناداة بتحرير

المرأة في الفترة الاستعمارية وما بعدها، فـ*وصول النساء إلى بعض المناصب البيروقراطية هو تبيين الدولة على أنّها تراعي حقوق المرأة، ولكن هو مجرد بيروقراطية نسوية، وهن في الحقيقة لا يمثلن مصالح النساء لأنّهن سيضحين بهذه المصالح في خدمة الدولة*" [14] وتصبح النساء هنا ورقة ضغط تستعملها الدولة خدمة لمصالحها الداخلية والخارجية.

علينا أن نقول أنّ **آسيا جبار** في مشوارها الأدبي دخلت إلى أعماق المقاومة النسوية سواء ما تعلق منها بمناهضة الاستعمار أم الهيمنة الذكورية والاجتماعية ببراعة أدبية تحسب لها، لكن نقصها الوعي بضرورة الوقوف عند أسباب تغير المجتمعات العربية في بعض تعاملاتها الدونية مع المرأة، والتي كان من بين أسبابها الاستعمار.

3- **الشتات: المرأة حين تقاوم الذاكرة وتاريخ الوهن:** من المؤكّد أنّ المرء إذ وضع في سياقات اجتماعية وثقافية صحية، وكانت له جملة من الاستعدادات للتأقلم والإبداع ضمن هذا الجو، فستكون النتيجة ممتازة ومميزة وهو ما عاشته **رضوى عاشور** ابنة المحامي عبد الوهاب وزوجة **مريد البرغوثي** الشاعر الفلسطيني الذي التحم وجوده بكيان هذه الكاتبة الفذة فعرفا معا أبجديات هذا العالم المتناهي في الصغر، واستطاعا معا أن لا ينخدعا بزيف الآخر المستعمر لأنّهما معا فَهما أن

الاستعمار حمّال أوجه وما إن دخل أمّة إلا أفسدها وغير بنيتها الثقافية والاجتماعية.

إنّ عالم **رضوى عاشور** الثقافي مليء بالمقاومة الفعلية، هي امرأة تعيش **المقاومة** وتؤمن بالثورة، وتقف مع المظلّومين والمقموعين والمهمشين، فإنتماؤها اليساري لم يكن موضة، بل كان واجبا أخلاقيا التزمت به إلى آخر أيامها، هي التي وقفت في ميدان التحرير تندد بالقمع وتضع يدها في يد كلّ الشباب الذين آمنوا بالتغيير للأفضل، **قاومت سياسيا** وأخلاقيا، كما أنّها **قاومت المرض** وكتبت سيرتها "**أثقل من رضوى**" و"**الصرخة**" وهي تقاوم السرطان الورم الخبيث الذي هشّم رأسها، لكنّها قمعته بالكتابة لسنوات لأنّها لا تؤمن بالرضوخ، وبالرغم من كلّ تلك العمليات التي تلقتها وصنعت في رأسها خارطة مفجعة، إلاّ أنّها ظلّت تقاوم بذاكرتها كي لا يهشمها ويوهنها النسيان.

إنّ وجود **رضوى عاشور** في هذا العالم هو للمقاومة، هذا أيضا ما ترسخ في كلّ كتاباتها سواء الإبداعية أم النقدية، كتبت عن الرواية في غرب إفريقيا كتابها النقدي "التابع ينهض"[15] لتناصر قارة أضناها الاستعمار بوحشيته، في كلّ المستويات، كتبت عن وول سوينكا وكمارا لاي وشينوا أشيبي ... وروائيين قاموا بالكتابة ليعيدوا لعالمهم الأفريقي أصالة ضيعها الاستعمار ومحاها مدعيا أن هذه الشعوب لا تاريخ لها.

كتبت عن ضياع الأنّدلس وعن فلسطين ثمانية وأربعين وسبعة وستين وفلسطين الشتات في روايتيها **أطياف** و**الطنطورية**.

لبست المقاومة النسوية في روايات رضوى عاشور لباس المواجهة لا المداهنة، والقارئ لرواية أطياف ذات "البناء السردي الهجين، يقف على نصّ ينصت لامرأتين وتاريخ مشترك وذاكرة تنتقي صوراً لمحرقات في حق الشعب الفلسطيني، تتصارع في الرواية الأصوات التي تصبح جوهرية في البناء الجمالي لهذا النص الذي خلخل بنيتنا القرائية ما دام قد اشتغل على تركيبة جناسية، يضع كتابات رضوى فعلا ضمن تيار ما بعد الحداثة، ولعبة المرايا والميتا -حكي دليل على هذا"[16]

أما روايتها الطنطورية فنكتشف حجم الفواجع التي قاومتها المرأة العربية ضد الاحتلال لصهيوني وتاريخه، ترسم الرواية تاريخا للمقاومة يبقى شاهدا على الشتات الذي تكبده الفلسطينيون في المنافي والمخيمات، اختارت رضوى عاشور شخصية رقية البطلة الساردة التي تمرّ عبرها النكبات والفواجع وتحكي عن الشتات والأجيال الجديدة التي لا تعرف استقرارا ولا طريقا للعودة، رواية **الطنطورية** تجسّد فعل المقاومة بالذاكرة، ذاكرة رقية التي يريدها حسن أن تُكتب لكي لا تموت، يصبح فعل الكتابة الذي تقوم به رقية وهي تنقل حرب المخيمات وصبرا وشتيلا فعلا لمقاومة النسيان: "*لماذا ورطتني في هذه الكتابة؟ ما المنطق أن أعيش تفاصل الكارثة مرتين....ذاكرتي*

تغالبني وأغالبها كأنّنا في حلبة مصارعة، ليس التشبيه دقيقا يا حسن، لا هي لعبة ولا في نهايتها منتصر ومهزوم أو جمهور يصفق ابتهاجا بفوز من فاز، ليست لعبة وإن كانت، فهي خطيرة تقتل[17].

لكن حسن يؤمن أن الكتابة هي الفعل الوحيد الذي سيحفظ الذاكرة من النسيان، وفعلا هي قناعة تقاسمتها الكثير من الروائيات اللاتي آمن أن فعل الكتابة وفعل السرد أداة فعالة للمقاومة في هذا العصر الذي اخترقه النسيان، وهو ما فعلته رضوى وآسيا جبار، وكلّ كاتبة آمنت أن قضايانا أكبر من أن نخندقها في صراعات لا تعرف الآخر.

الهوامش:

[1]Héritier Françoise: Masculin/Féminin; La pensée de la différence; Paris; Odile Jakob.2007.P31;

نقلا عن إليزابت كريميو: وضعية المرأة في العالم، ترجمة، حنان القصبي ومحمد الهلالي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2015. ص15.

[2] باميلا أرجريتو دييوليو، قفص الحريم، ترجمة محمد الجندي، مراجعة محمد عناني، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة، 2011، ص23

[3] المرجع نفسه: ص43

[4] Assia Djebar : Loin de Médine. Albain Michel ;

[5] Assia Djebar; La femme sans sepulture; Edition Albin Michel; France; 2002.

[6] بيل أشكروفت: وغاريفث غريفيث وهلين تيفن: الرد بالكتابة، النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، 2006.، ص284

[7]Assia Djebar; La femme sans sépulture; p121.

[8] Ibid; p121.

[9] Voir: Assia Djebar; Femmes D'alger Dans Leur Appartement; Albin Michel; 2002; La nuit du récit de Fatima.

[10] باميلا أرجريتو دييوليو، قفص الحريم : ص51

[11] كيف لمجتمع قدم عددا يكاد يكون متساويا من الشهداء والشهيدات أن يتحدث فيه عن هيمنة ذكورية؟ نذكر فقط أن قرى جزائرية برمتها كان يصعد رجالها إلى الجبل وتبقى النساء اللاتي يغتصبن من قبل المستعمر نكاية في المجاهدين، وبالرغم من ذلك الكثير من المجاهدين تحملوا مثل هذا العار ولم تنف أسرة ابنتها جراء اغتصاب. بل بعض المجاهدات اغتصبن عنوة أمام أزواجهن وآبائهن. أعتقد أنه علينا مراجعة الكثير من القناعات التي بقيت راسخة في ذهننا وهي أن المستعمر حضر المرأة الجزائرية، فإن لبسنا اليوم أو تكلمنا بثقافة المستعمرين فهي غنائم حرب ولا تدل على تحضر يدعيه المستعمر بل يفرضه الاحتكاك الثقافي، فالتحضر لا يأتي بعد إستدمار شعب.

[12] خاصّة وهي في أسرة متعلمة مليئة بالنخوة. تصور **آسيا جبار** جيدا في سيرتها كيف استطاع والدها المدرس في المدرسة الفرنسية أن يواجه ويقاوم الآخر الذي تعدى على حقه كمدرس دون أن يأبه بشيء

[13] مرفت حاتم ص27

[14] ص28

[15] رضوى عاشور: التابع ينهض الرواية في غرب إفريقيا، دار ابن رشد، بدون تاريخ.

[16] حياة أم السعد: وجع الذاكرة وسيناريوهات المقاومة في التشكيل السردي عند رضوى عاشور، ضمن مؤلف جماعي ثقافة المقاومة، دار الخلدونية، 2015، ص267.

[17] الطنطورية: ص231.

إعلان عن جائزة اللغة العربية 2018

يعلن المجلس الأعلى للغة العربية عن تنظيم (**جائزة المجلس للغة العربية لسنة 2018**) التي تهدف إلى تشجيع الباحثين من داخل الوطن، وتثمين منجزاتهم العلمية والمعرفية، ذات المردود النوعي الهادف إلى إثراء اللّغة العربية، والإسهام في نشرها وترقيتها، سواء أكانت هذه الأعمال مؤلفة باللّغة العربية، أم مترجمة إليها.

1 ـ **شروط الترشح للجائزة:**

- أن يقدم العمل باللّغة العربية؛
- أن يتوفّر العمل على قواعد المنهجية العلمية؛
- أن يكون البحث موثقا وأصيلا، وفي مجال الترجمة ترفق نسخة للنّص بلغته الأصلية؛
- أن لا يقل البحث المقدّم عن مائة (100) صفحة وأقصاها خمسمائة (500) صفحة (مكتوبة بخط simplified arabic حجم 14)
- ألاّ يكون البحث قد نال به صاحبه جائزة أو شهادة علمية؛
- ألاّ يكون البحث قد نشر؛
- أن يندرج البحث في أحد المجالات المذكورة أدناه؛
- قرارات لجنة التحكيم غير قابلة للطعن؛
- لا تردّ الأعمال إلى أصحابها؛ سواء فازت أم لم تفز.

2 ـ **مبلغ الجائزة:** حدّد مبلغ الجائزة بـ 2.000.000 دج، يوزّع بمقدار 500.000 دج لكل مجال من المجالات الأربعة التالية:

2 - 1 - جائزة المجلس في علوم اللّسان.

2- 2 - جائزة المجلس في الترجمة إلى العربية.

2 - 3- جائزة المجلس في العلوم وتكنولوجيات الاتّصالات الحديثة.

2- 4 - جائزة المجلس في أحسن عمل ميداني لتعريب الإدارة والمحيط.

يوزّع المبلغ المالي في كل مجال من مجالات جائزة المجلس للغة العربية على النحو التالي:

- 70% للفائز الأول أي 350.000 دج؛
- 30% للفائز الثاني أي 150.000 دج؛

وفي حالة حجب الجائزة في مجال من المجالات، يمكن للجنة التحكيم آن تقترح جائزة تشجيعية، شريطة أن يتوفر المبلغ في أحد المجالات، على ألا تتجاوز قيمتها 60% من مبلغ الجائزة الثانية.

- يمكن أن يتكفّل المجلس بنشر الأعمال الفائزة باستثناء الجائزة التشجيعية التي تُحال على هيئتي تحرير مجلتي: اللّغة العربية ومجلة معالم للترجمة للتداول بشأن إمكانية نشرها في عدد من أعدادهما.

- تصبح الأعمال الفائزة بجائزة المجلس ملْكا له، إلا أنه يمكن لمؤلفّها استعادة حقوقه بعد موافقة المجلس، وبعد انقضاء مدة ثلاث (03) سنوات على الأقلّ من نشر العمل في طبعته الأولى؛

- تعرض الأعمال المرشحة على لجنة تحكيم مكونّة من ذوي الاختصاص الذين لا يسمح لهم بالمشاركة في الجائزة.

3 ـ **طلب الترشح:**

يتكون طلب الترشح للجائزة من الوثائق الآتية :

- طلب خطي؛
- نسخة من وثيقة الهوية (بطاقة التعريف أو رخصة السياقة)؛
- السيرة العلمية للمشارك؛
- نسختين من البحث المقدّم لنيل الجائزة:
- النسخة الأولى مسجلة على قرص والنسخة الثانية توجه عن طريق البريد المسجّل، ويكون تاريخ الختم البريدي شاهدا على ذلك.

4 ـ **فتح باب الترشح للجائزة** ابتداء من 02 يناير 2017 إلى غاية 30 سبتمبر 2018، وتوزع بمناسبة الاحتفاء باليوم العالمي للغة الربية (18 ديسمبر 2018).

للاستفسار الاتّصال بالروابط: الهاتف: 09 07 23 021 / 99 88 023 21. البريد الإلكتروني: sg.hcla@gmail.com

5 ـ **يوجه ملّف الترشح إلى العنوان الآتي:**

السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية شارع فرانكلين روزفلت، الجزائر.

أو ص.ب : 575 شارع ديدوش مراد الجزائر العاصمة

(جائزة المجلس للغة العربية 2018).